تفاعل النحو والبلاغة في تحصيل اللغة العربية

الدكتور محمد القاسمي
كليةالآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس المغرب

إن واقع الدرس اللغوي الدي يجسده واقع اللغة العربية في المغرب، لايختلف كثيرا عن المشهد اللغوي في الدول العربية،وربما يعود هامش الاختلاف بين واقع لغوي في قطر عربي معين وآخر إلى بعض الخصوصيات البيئية والظروف التاريخية التي تميز بلدا عربيا عن غيره. ومن هنا فإن الإشكالية الكبرى التي تطرحها هذه الورقة العلمية تحمل في ثنايها هما معرفيا وحسا وطنيا وإحساسا قوميا لدى المهتمين بواقع اللغة العربية في محاولة لتشخيص واقع الدرس اللغوي في جوانبه المتعددة، بعد أن لاحظ الجميع تراجع مستوى اللغة في صفوف الناشئة من المستوى الإعدادي مرورا بالثانوي إلى المستوى الجامعي، ولاشك أن أسباب التراجع لا تعود إلى طبيعة اللغة العربية ذاتها بل تعود إلى أسباب أخرى متعددة ومتنوعة لا علاقة لها باللغة وطبيعتها.

إن اللغة العربية شأنها شأن غيرها من اللغات هي الوسيلة التي يستخدمها أبناؤها في عملية التواصل وفي عملية التعبير عن كل ما يجيش في خواطرهم من أحاسيس ومشاعر، وعن كل ما يدور في أذهانهم من معان وأفكار . ومع ذلك فإن الجميع يشتكي من تدني المستوى التعليمي بوجه عام وتحصيل اللغة وتحصيل اللغة العربية بوجه خاص، ويرجع باللائمة على النحو والنحاة، على الرغم من أننا نتفق جميعا على ضعف التعليم في مختلف مراحله وليس لمادة وضع أحسن حالا من مادة أخرى في نفوس الطلبة .

وهنا تطرح أسئلة كثيرة منها : هل من سبيل لاسترجاع أمجاد اللغة العربية؟ وهل من سبيل للارتقاء بعلوم العربية؟ وما سر الضعف الذي يلازم طلبة شعبة اللغة العربية بله الشعب الأخرى ؟ أيعود الضعف إلى الأستاذ أم إلى الطالب أم إلى المادة نفسها ؟ أهو في طبيعة المادة أم في منهجها؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى حوار جاد ومتواصل ينصب حول تيسير الظروف والأساليب التي ينبغي اتباعها في تدريس العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، بدءا من صياغة المادة وشواهدها إلى توعية الطالب بأهمية لغته وقواعدها في الحفاظ على هويته ولغته الدينية والقومية .

وقبل تقديم مقترحات منهجية لتسهيل عملية تحصيل اللغة العربية، لابد من الإشارة إلى مجموعة من الأمور الموضوعية التي تسهم في عرقلة عملية اكتساب الدرس اللغوي، وفي نفور الطلاب من الساعات المعتمدة لهذه المادة. ولعل أهم تلك الأسباب تعود إلى :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– الكم القليل الذي يدرسه الطلاب في ميدان التخصص بدعوى انفتاحه على مواد دراسيــة من خـارج التخصص لتوسيع مداركه في علوم معرفية أخرى كالتاريخ والجغرافية والفنون وغيرها

– الفترة الزمنية المخصصة للغة العربية قليلة ولا تكفي لتمكينه من التعرف الحقيقي على المادة المدروسة كما لا تصلح أن تكون أداة فعالة لتحقيق نموه الفكري والعقلي والوجداني .

– يجب الاعتراف أن معظم الطلبة الذين يلتحقون بشعبة اللغة العربية في الجامعات المغربية يحملون معدلات لا ترقى إلى المستوى المطلوب، ومن هنا لابد من إعادة النظر في طرق تدريس علوم العربية في مستوى ما قبل الجامعي . لأن القضية الرئيسية التي يواجهها معلم اللغة العربية ومتعلموها على حد سواء تكمن في تدريس قواعد هذه اللغة، والطريقة التي تقدم بها تلك القواعد في عملية التعلم . فالطريقة التي تقدم من خلالها القواعد العربية لطلابنا في مختلف أسلاك التعليم لا تخلو في أغلب الأحيان من التكلف والصنعة والتلقين الأجوف من جانب المدرس، ومن الحفظ الخالص من جانب المتعلم في غياب تام لتحليل النصوص الفنية، أو محاورتها بهدف تذوقها واستجلاء عناصر الجمال المستكنة فيها. ويضاف إلى ذلك أن المدرسين وخاصة في شعب اللغة العربية في مختلف الجامعات المغربية يعتمدون بشكل مطلق، وفي معظم الحالات، على اجترار التراث اللغوي، كما جاءت في متونه القديمة، وفي غياب تام لمحاورة ذلك التراث وتبسيطه بطرق جديدة ولغة جديدة تتناسب ومتطلبات العصر . فالأمثلة مازالت في دروس النحو تدور حول علاقة زيد بعمر، وفي دروس البلاغة عن الشاهد الشعري كما وقف عنده البلاغيون القدماء.

ومن هنا فإن تقوية مناعة اللغة العربية وتحبيبها إلى نفوس الطلبة في مختلف مراحل التعليم تتطلب جانبين أساسيين : الجانب اللغوي العلمي والجانب الأدبي الفني. ولاشك أن تفاعل المادة العلمية اللغوية بالمادة الأدبية بشكل يرتبط فيه التراث بالحداثة والأصالة بالمعاصرة، ثم تكاملهما في أي عمل تربوي من شأنه أن يمنح الدرس اللغوي نفسا جديدا وإقبالا كبيرا من جانب الطلاب والمتعلمين بشكل عام. وذلك لأن روافد العلوم اللغوية تمكن الطالب من تناول فروع اللغة ومستوياتها المختلفة بالدرس والتحليل وفق منهجية تربوية منظمة كما أن روافد الدراسات الأدبية تمكن الطالب من تناول الجوانب الجمالية للغة وما لها من تأثير فاعل على نفوس الطلبة ووجدانهم. ولن يتحقق ذلك إلا بإعادة النظر في طريقة التدريس منهجا ومضمونا، فإذا كان تراثنا الأدبي شعرا ونثرا يحتوي على كنوز ونفائس غنية في هذا المجال، فإن تحبيب الدرس اللغوي إلى نفوس الناشئة يحتم علينا أن نقوم بالانفتاح على التيارات والثقافات الأدبية والإنسانية التي تشتمل على إرث إنساني أصيل وعطاء حضاري متجدد بدل اجترار أمثلة وشواهد ونصوص لا علاقة لها بواقعه وهمومه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن أجل النهوض بمستوى تحصيل اللغة العربية لابد من إعادة النظر في الطريقة التي تقدم بها كثير من العلوم العربية وخاصة مادتي النحو والبلاغة في مناهجنا الدراسية، حيث يقدم الدرس النحوي في استقلال تام عن الدرس البلاغي رغم إمكانية استثمارهما في آن واحد في تحليل الظواهر اللغوية والنصوص الأدبية . وسنقف لاحقا عند نماذج من تلازم الدرس النحوي للدرس البلاغي في فهم بعض النصوص واستكناه أسرارها اللغوية.

لقد تفطّن القدماء إلى أن الدرس النحوي وحده غير كاف لفهم أسرار الخطاب، إذ إن الدرس البلاغي كان ضروريا أيضا، ولهذا نصت المدرسة البصرية على ضرورة الاهتمام بالدرس البلاغي وهكذا صار النحو والبلاغة يشتركان في خدمة اللغة، فالنحوي يعلم قواعد الإعراب، ودلالة الألفاظ على المعاني، والبلاغي يعلم أسرار اللغة وتميز أساليبها. وفي هذا السياق يقول ابن لأثير: «البلاغي والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة،وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن. وذلك أمر وراء الإعراب»[1].

وقد جرت العادة في المناهج التربوية في مختلف المستويات التعليمية فصل الدرس النحوي عن الدرس البلاغي وهي عملية لا تخضع لأي مسوغ علمي أو تربوي. فالبلاغي محتاج قبل تحليل النص الفني والكشف عن أسراره الجمالية إلى معرفة اللغة التي يريد أن يخاطب بها من مفرداتها وتركيبها، فإذا لم يعلم ذلك لم يكد كلامه أن يفهم، وهذه المعرفة تحصل له من علم اللغة والنحو والصرف فإن حاول تكلم اللغة من دون هذه المعرفة الضرورية كان كلامه كما قال الحطيئة وهو يتحدث عن الشعر « يريد أن يعربه فيعجمه » ولكنه إذا علم اللغة والنحو والصرف فإنه يستطيع أن يعبر عن حاصل المراد وأصل المعنى.

ولما كان النحو والبلاغة كلاهما يهتم بالكلام، وكان الأول ينظر في استقامة الكلام إعرابا وتركيبا، والثانية تنظر في «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» فإن عمل الثانية لا غنى فيه عن الأول فلا بلاغة لكلام لاحن، إلا أن يكون اللحن مقصودا ومحدودا بحيث يفيد عدولا عن القانون النحوي لإنجاز كلام فني باختراق ذلك بشكل مقصود. ومن ثم فإن العمل النحوي والبلاغي يتم على موضوع واحد، وإن كان لكل واحد منهما منظور مخصوص. ونشير إلى أنه جرى في المناهج التعليمية تقديم تدريس النحو على البلاغة بدعوى عصمة التلاميذ من الخطأ في التركيب وبناء الجملة، وبعد ذلك ينتقل إلى معرفة الوجوه الكلامية للكلام بتدريس جانب

1– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت 1990 ج 1/39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من جوانب البلاغة وهو علم البيان وبصورة خاصة التشبيه والاستعارة. وبذلك يختزل الدرس البلاغي في هذين البابين، في حين أنه يمكن إعادة النظر في هذه السنة التعليمية التي تقدم النحو بعيدا عن مكونات البلاغة.

ورغم أن النحوكان أسبق في الاكتمال على يد سيبويه فقد أمكن له أن يحدث تأثيرا عميقا فى بعض المباحث البلاغية، لاسيما علم المعاني، وهو العلم الذي يتجلى فيه بوضوح تداخل المستوى النحوي بالمستوى البلاغي على نحو شديد الوضوح، حتى إن بعض الباحثين المحدثين رأى أنه العلم الأعلق بالنحو ولا مندوحة من فصله عن البلاغة.

وقد كان عبد القاهر الجرجاني من النقاد الأوائل الذين أخرجوا البحث النحوي من جموده وحرروه من قيود الصواب والخطأ، وأضاف له مهمة جديدة تحفظ له الديمومة والتجدد،من خلال توسيع أفق النحو وتطويع أدواته حتى يتمكن من تحديد مواطن الحسن والجمال في اللغة، شعرية كانت أوغير شعرية،كما نص على ضرورة دراسة البلاغة في ضوء تصور جديد يقوم على دعامة النحو وأحكامه. وفي هذا المعنى يقول الجرجاني: «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ في النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[1]. ومعنى هذا أن النحو لم يعد يقتصر على معرفة الخطأ والصواب في الجملة بل أصبح مع الجرجاني يتحرك بين مستويين متلازمين:

* مستوى معياري يتولى الحكم على الجملة بالصحة والخطإ بناء على قواعد علمية دقيقة ومضبوطة لا تقبل التغيير.

* مستوى وصفي ينطلق من المستوى السابق ليتجاوزه إلى تحديد مواطن المزية والجمال في الكلام الفني، وإلى تعليل تلك المزية التي تجد نموذجها الأسمى في اللغة الشعرية في دلالتها المجازية المتمثلة أساسا في الاستعارة والكناية والتمثيل، وكذلك في أبواب علم المعاني من أمر ونهي ونداء وتقديم وتأخير وفصل ووصل وغيرها، وبذلك استطاع الجرجاني تقريب المسافة بين النحو والبلاغة وردم الهوة الفاصلة بينهما. يقول عبد القادر حسين عن هذا الاتجاه الجديد الذي سلكه الجرجاني في تقريب النحو من

1 – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمدرشيدرضا 1960 ص67.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البلاغة : «هو منهج النحو الذي لا يقف عند حدود التحكم بالصحة والفساد، بل يمتد في البحث عن العلاقات التي تقيمها اللغة بين الكلمات، وإلى اجتلاء معانيها وكشف غامضها، وبذلك اتسع أفق النحو وغنيت مادته، ودخل فيه ما يراعى في النظم من تقديم وتأخير وما إليه من أسباب الجودة وعدمها، مما استقر عليه العرف فيما بعد بجعلها من علم المعاني، وأن يتجاوز القواعد النحوية إلى الجودة الفنية»[1].

وانطلاقا من هذا التصور ينبغي إعادة النظر في كثير من القضايا النحوية التي اشتغل بها النحاة والتي أرهقت كاهل المتعلمين، وكذلك في طرق تدريس النحو، وذلك عبر الابتعاد ما أمكن عن التوغل في القواعد الجافة والتركيز على وظيفة النحو داخل السلسلة الكلامية. وقد أثبتت اللسانيات المعاصرة ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني على أن الكلمات لا معنى لها،وليس لها إلا وظائفها، وهذا يعني أن تحديد معنى الكلمة ووظيفتها النحوية رهين بعلاقتها مع الكلمات الأخرى. ولا يمكن أن تأخذ أي معنى خارج السياق. وهذا الفهم للنحو هو الذي يضمن الكشف عن المعنى الدلالي والنحوي في الخطاب وعن وظيفة النحو في جميع أنواع الخطاب. إلا أن جل النحاة العرب القدماء ابتعدوا عن هذا الفهم واشتغلوا بكثير من القضايا التي لا تتجاوز أحوال الكلم من إعراب وبناء والمغالاة في الانشغال بالخلافات النحوية والقواعد الجافة، وهكذا حددوا للإعراب محلا فكان ماله محل من الإعراب، وما ليس له محل. .واضطرب المتعلم تبعا لذلك في التمييز بينهما، وكذلك الدعوة إلى الإعراب التقديري والمحلي والتعذر والاستثقال وهي قواعد تجريدية ليس من النجاعة التربوية تعميمها . كما لاحظ النحاة ظهور علامات الإعراب في آخر الكلمات وقاموا بتصنيف الأسماء إلى متمكن الأمكن أو المتصرف، وظهورا جزئيا فقالوا المتمكن أو غير المنصرف. كما أن الحركات الثلاث لا تظهر على الاسم المقصور للتعذر ولا على المضاف إلى ياء المتكلم لاشتغال المحل، ولا تظهر الضمة ولا الكسرة على المنقوص للثقل، وغيرها من القواعد الأخرى .

وهذا الحرص على معرفة دقائق النحو وأسراره يزيد في تعقيد الأمور بالنسبة للمتعلمين لأن ذلك يثقل ألسنتهم بتدريبات تقنية ولا تسهم في تقويم ألسنتهم، وفي استعمال اللغة بطريقة سليمة. ومن هنا بات من الضروري مراجعة المنهجية التي تقدم بها الأبواب النحوية للناشئة، وذلك لتسهيل تعاطيها وتلقيها وذلك بإعادة النظر في توزيع حركات الإعراب فيها بالمقارنة بين الأبواب النحوية، مثل القول إن المنادى لا ينون مثل الممنوع من الصرف كأن يقال جاء علي ويا علي . فالأول نقول عنه فاعل مرفوع، والثاني منادى مبني على الضم وذلك حتى نجنب المتعلمين

1– عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم مجلة الفكر العربي عدد46 / يونيو / 1987 ص149.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القوالب التجريدية المفترضة التي لا حاجة له بأن يبحث عنها، ولا أن يلزم نفسه بذكرها لأنها لا تقوم لسانه ولا تصوب لغته .

وأعتقد أن أفضل طريقة لتحصيل اللغة وتحصينها هي معرفة القضايا النحوية في تفاعل تام مع القضايا الأخرى البلاغية والصرفية داخل السلسلة الكلامية بعيدا عن القواعد الجافة والتقديرات الافتراضية. وهنا نجد في منهج عبد القاهر الجرجاني الطريقة المثلى في تقريب النحو وأبوابه من ذهن المتعلمين وذلك حين يربطه بمستويات أخرى من اللغة.

وقد تفطّن عدد من المحدثين إلى إمكانية تبني منهج البحث الذي أحدثه الجرجاني في مقاربة مختلف الظواهر اللغوية . وفي هذا الصدد يقول إبراهيم مصطفى : «لقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيى وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر وأن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدراتها على رسم المعاني والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها :[1]

ويوضح أحمد مطلوب منهج الجرجاني أيضا بقوله : «لا يختلف منهجه عن منهج النحاة في بحثه الأساليب النحوية كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه لأساليب اختلافا كبيرا فقد أعطى هذه الموضوعات حياة فقدتها على يد الذين قللوا من قيمة النحو وزهدوا فيه أو نظروا إليه نظرة ضيقة تنحصر في الإعراب »[2] .

إن خصوصية نظرة الجرجاني للنحو وأبوابه تتجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب إلى التأكيد على أن الكلام نظم، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام. وهنا لا يكاد الجرجاني يستغني عن النحو في حديثه عن النظم وعن الأساليب البلاغية . والمقصود بالنحو هنا ليس القوانين الجامدة التي وضعها علماء النحو بل أراد به العلم الذي يكون الأساس في التفريق بين الأساليب اللغوية من فصل ووصل وتقديم وتأخير وذكر وحذف وغيرها «فالفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ عن الكلمات وإنما في معاني هذه العبارات يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق لذا لم يكن هدفه معرفة قوانين النحو وحسب بل فيما تؤدي إليه هذه القوانين »[3] .

ولا يقف الجرجاني عند مستوى الإشادة بالمستوى النحوي ودوره في تحصيل اللغة، بل يجعل من النحو أداة فعالة في الكشف عن شعرية النص الشعري، والنص الفني بصفة عامة. وهنا يؤكد أن القواعد النحوية باعتبارها قوالب جامدة لا قيمة لها في حد ذاتها، وإنما قيمتها

1 – إحياء النحو، إبراهيم مصطفى القاهرة 1959 ص20.

2 – عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوات، الكويت، ط1 1973، ص58.

3– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص 68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في علاقتها بالقيم التعبيرية داخل السلسلة الكلامية.وهنا يعتبر الجرجاني النحو نسقا لازما للشعرية في تجلياتها المختلفة.فقد جرت العادة الحكم على جودة بعض النصوص الشعرية بناء على ما تضمنته من صور شعرية وأساليب فنية، وهنا يؤكد الجرجاني أن جانبا مهما من جمالية تلك الصور الأسلوبية ترجع إلى مجموعة من التشكلات النحوية.وفي ذلك يقول الجرجاني: «ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى:(واشتعل الرأس شيبا)» سورة مريم:4» لم يزيدوا على ذكر الاستعارة،ولم ينسبوا الشرف إلا إليها،ولم يروا للمزية موجبا سواها.هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء»[1].

ولإبراز أهمية النحو في الكشف عن جمالية اللغة وأسرارها الفنية، يعمد الجرجاني إلى تقديم النحو على البلاغة في الحكم على بعض الصور الأسلوبية،ومن ذلك تعليقه على قول الشاعر (وسالت بأعناق المطي الأباطح): «وذلك أنه لم يغرب لأن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا الشبه معروف ظاهر،ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها، بأن جعل «سال» فعلا للأباطح، ثم عداه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البين، فقال بأعناق المطي، ولم يقل بالمطي،ولو قال «سالت المطي في الأباطح»، لم يكن شيئا. ولايعني هذا ملازمة هذه المزية لكل تشكيل نحوي مشابه، بحيث نحكم بالحسن كلما واجهنا هذا النوع من التشكيل. بل لابد من النظر في البعد التعليقي للألفاظ داخل السلسلة الكلامية،ثم النظر في الناتج الدلالي منه،و في توافق كل ذلك مع حركة الذهن عند المبدع. وبهذه الطريقة التي سنها الجرجاني في تراثنا اللغوي نعيد للنحووللبلاغة قيمتهما الفنية والأسلوبية ومكانتهما العلمية، ونسهم في استرجاع اللغة لمجدها وشموخها.

1- دلائل الإعجاز،ص100.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش :

1– إحياء النحو، إبراهيم مصطفى القاهرة 1959 .

2– دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمدرشيدرضا 1960 .

3– عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم مجلة الفكر العربي عدد46 / يونيو / 1987 .

4– المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير تحقيقمحمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت 1990 .

5– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوات، الكويت، ط1 1973 .

6– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، .

7– دلائل الإعجاز، ص: 100 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com